القراءة التفكيكية للنص الحداثي

القراءة التفكيكية للنص الحداثي

تمهيد نظري :

لقد شغلت عملية القراءة للنص الأدبي الكثير من النقاد مما جعلهم يضعون النص أمامهم ويأخذ كل منهم طرفاً يعتقد – من وجهة نظره- أن هذا الطرف هو الذي سيكشف عن خبايا النص ويخرج ثمار النص من الأرض القاحلة .

وكان الاتجاه قديماً يربط بين النص ومؤلفه أو النص والبيئة الاجتماعية أو الدينية أو السياسية في نوع من خلق شراكة بين المرسل والمرسل إليه ومكان البث فنشأ لدينا ما يسمي بالنقد التاريخي .

وقد كان هذا النقد نتاجاً لتطورات القرن التاسع عشر في التاريخ وعلم الحفريات وفقه اللغة ، وقد سعت التاريخية كطريقة لقراءة النصوص إلى ترسيخ السياق التاريخي للنص ، والبحث عن مصادره التاريخية وتأثيراتها عليه ووضع النص في مكان من حياة المؤلف ، وبتعبير آخر حولت التاريخية العمل الأدبي إلى وثيقة تاريخية تكمن أهميته الرئيسة ومعناه الحقيقي في وضعه في فترة زمنية ووضعه في حياة المؤلف .

ثم تطورت النظرة النقدية للنص ونشأ ما يسمي بالنقد العملي (practical criticism) الذي ارتبط باسم (رتيشاردز)، وكانت نظريته لغوية بصورة أساسية ، وقد تبني في مناقشته لوظيفة الأدب مقاربة لفحص سيكولوجية القارئ واستجابته العصبية للنص كوسيلة لخلق الانسجام بين

عقل القارئ وشعوره في عملية إدراكه لمعنى النص ، افترض ريتشاردز في النقد العملي دراسته التي كتبها في ١٩٢٩ عن الكيفية التي يقرأ بها القراء الشعر بالفعل تلازم أربعة أنواع من المعني: الفهم sense (الشيء الذي يتم الكلام عنه) والشعور feeling (موقف المتكلم من الشيء الذي يتم الحديث عنه) والنغمة tone (موقف المتكلم من السمع) والمقصد intention (التأثير الذي يرغب المتكلم في تعزيزه) وصار هذا التقسيم للمعنى بأجزائه الأربعة والمحتمل في كل ما ينطق به الإنسان ، ومن ثم في النصوص الشعرية أيضاً إستراتيجية أساسية في تطبيق النقد الأدبي وبصورة كبيرة في تدريس هذا التطبيق في إنجلترا . [١]

وقد أثبتت هاتان النظريتان إخفاقهما على مر العصور واختلاف الأجناس الأدبية وبدأت الأنظار تتجه إلي النص الأدبي بوصفه وحدة متكاملة بعيدة عن المؤلف أو البنية أو الواقع المعيش ، فظهرت نظرية (موت المؤلف) ، وخرجت المناهج الحداثية التي تختص بقراءة النص كالأسلوبية والبنيوية وغيرها .

وقد وجه (ديمان) النقد لهذه المناهج وهيئ المناخ النقدي لاستقبال وافد جديد " إن النقد الجديد أصابه العمى في لحظاته الأكثر تنويراً وقدرة على الرؤية نظراً لتناقض الشكل مع المضمون ومصطلحات المذهب النقدي ، ويرى أنه قد انتهي زمن تسلط العمل الأدبي الذي كان يجبر النقد خشية الاقتراب من النص ، ويعتقد أن أسلوبا جديداً ومستقلاً للتعليق قد غزا وحدة النص ووضع كل الصفات التقليدية للمعني الأدبي موضع المساءلة ، وهذا الارتفاع بالأدب إلى مستوى البلاغة المركبة بحيث تصبح لحظات العمر أكثر إيحاءً من أي بحث فلسفي " [٢]

إن الدكتور طه حسين رغم ثورته التي كادت تصل إلي حد التطرف حينما تعامل نقدياً في كتابه " حديث الأربعاء " مع النموذج الرومانسي الذي قدمه إبراهيم ناجي لم يستطيع أن يتواءم معه رغم شاعريته العالية والتي كانت تعبر عن روح العصر لا لشيء إلا لأن ناجي كان يكتب شعراً مهموساً ، وبالتالي فإنه لا يصلح إلا (للصالونات) ، لقد صدم النموذج الجديد ذاكرة طه حسين التي تم برمجتها طبقاً للنموذج التقليدي لمجرد أن النموذج الجديد تخلى عن سمة أساسية في الشعر القديم هي سمة الإنشاد وهنا يصبح الهمس نقيضه " [٣]

ذكرت هذا المثل لأوكد أن النص الحداثي بما يحتوي من تفجيرات لغوية وإرشادات رمزية قد مثل صدمة كبيرة لكثير من النقاد الذين يتمسكون بآليات النقد القديم ، فالنص الحداثي يحتاج إلى كيفية لفك شفراته تجعل الناقد يقترب من هذا النص كي يمكن إجراء حوار معه ، وعليه أيضاً أن ينتقل من الاتجاهات المعيارية في النقد التي تستهدف بالأساس المعنى والقيمة إلي الاتجاهات المحيطة .

ومع تطور مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية ، فقد أصبح يتحدد بوصفه منظومة من القواعد التي تميز مجموعة من المنظومات تنتظم داخل الممارسة الخطابية ، وهو منظومة تسمح بتكوين مواضيع البحث وتوزيعها وتجدد أنماط القول ، ولعبة المفاهيم والاحتمالات النظرية " [٤]

والخطاب عند (فوكو) يعني " ميدان التحليل وهو ضرب من تضافر الإشارات تكون اللغة فيه عنصراً تمثيلياً بين عناصر إشارية أخرى " [٥]

وعند (هاريس) " ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل " [٦]

عند (بنفنست) " كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً ، وعند الأول هدف التأثير علي الثاني بطريقة ما " [٧]

عند (تودوروف) " مجموعة البنيات اللفظية التي تعمل في كل عمل أدبي ، وعند (جان كارون)" متتالية منسجمة من الملفوظات " [٨]

ويبدو من التعريفات السابقة للخطاب مدى التركيز على اللغة ولوازمها الإشارية واللفظية كحوار ناطق دال على ماهية الخطاب وتطوره ، فلم يعد الخطاب رسالة بين مرسل ومستقبل تهدف إلي توصيل معني ولم يعد مجموعة من الجمل والعبارات التي تحمل مضموناً للمتلقي ، ولكن صار يتسم بالحوارية واللغة المثقلة بالإيحاءات والإشارات التي تنقل للمتلقي حالة يستطيع من خلال فك شفراتها أن يتعايش معها ويقطن فيها ، وهذا ما يتواكب مع لغة النص الحداثي .

وكذلك أيضاً تطور مصطلح القراءة للنص واختفى مصطلح التحليل وراء مصطلحات حداثية جاءت لتطوره ، فالقراءة عند أدونيس تعني أن " ليس للنص الشعري معنى – كما يفهم تقليدياً – وإنما هو حركية من الدلالات ، إنه بتعبير آخر لا يقدم اليقين بل الاحتمال ، إنه نص يتجدد مع كل قراءة لا ينتهي ولا يستنفد .. شعرية القراءة ابتكار الأفق الخاص بهذه الطريقة لمواكبة الأفق الإبداعي في النص المقروء " [٩]

ولا تصح قراءة العمل الشعري بما هو خارج عنه ولا بمجرد نصيته المحضة فقراءته بعناصر من خارجه إلغاء له، وقراءته بذاته وحده إلغاء لتاريخيته أو لاجتماعيته ، فليس العمل الشعري مجرد انعكاس واقعي اجتماعي ، إنه قبل كل شئ مركب إبداعي يصدر عن مركب إنساني وهو إذاً قبل كل شيء كشف " [١٠]

ويرفض أدونيس القول بتفسير النص وإحالة الألفاظ إلى مجموعة من المعاني ومع تراكب المعاني وجماعها ينتج لنا المعنى المقصود من النص، فهذا لا يتوافق مع القراءة الكشفية ، أو إذا صح أن نطلق عليها (القراءة الحفرية) التي تحيل النص إلى نوع من اللذة التي تجعله في حوار مفتوح دائماً ، وقابلية الخوض فيه مسموحة.

" فالنقد هو أكثر من قراءة: ليس تفسيراً للنص أو تأويلاً وحسب ، إنه معرفة أو ابتكار معرفة جديدة انطلاقاً من النص واستناداً إليه .. يؤسس النقد دائماً لبدايات كلام آخر.. النقد كالفكر، أو هو فكر لا يتغذى ولا ينمو إلا بالتساؤل المستمر إنه نقيض المنهج المغلق وهو لذلك يظل بدءاً "[١١]

وفي نوع من التعمق داخل النص ظهرت اتجاهات ما بعد الحداثة التي احتفلت بأنموذج التشظي والتشتيت واللاتقريرية كمقابل لشموليات الحداثة وثوابتها ، وزعزعت الثقة بألانموذج الكوني والخطية التقدمية وحاربت العقل والعقلانية ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية وتضع محلها الضرورات الروحية وضرورة التغيير المستمر وتبجيل اللحظة الحاضرة .

ومن ضمن تلك المناهج التفكيكية التقويضية DECNSTRUCTION التي تعني كما ترى " بربرا جونسون " "تمزيق دقيق لقوى الدلالة المتصارعة في النص " وعند بول دي مان " إظهار المتفضلات والأجزاء المختبئة في الوحدات الجوهرية المفترضة ، وإنها نظرية تهدف إلى إنتاج تفسيرات للنصوص أقل مما تهدف إلي فحص الطريقة التي يقرأ بها القراء هذه النصوص .

" إن التفكيك بالمعني الدقيق مقاربة فلسفية للنصوص ، إنه نظرية بعد البنيوية POST-STRUCTURALIST، ولا تدل " بعدPOST" هنا على أن التفكيك يحل محل البنيوية باعتباره نظرية أحدث زمنياً ، ولكنها تدل بالأحرى على أنه يعتمد على البنيوية كنظام تحليلي سابق .

تطور التفكيك في فرنسا أساسا وارتبط عموماً بأعمال (جاك دريدا) ويمكن القول أنه أبدعه كمنهج لقراءة النصوص، ومهما يكن فإن دريدا ذاته يعترف بفضل أعمال بعض الفلاسفة السابقين عليه مثل (كانت ونيتشيه وهوسرل)" (١٢)

فالتفكيك يهدف إلى فك نظام معطى للأولويات بالإضافة إلى حل نظام التضاد المفهومي الذي يوجد نظام الأولويات ذاته ، فالتفكيك نشاط قرائي يعمل علي الحفاظ علي الارتباط الوثيق بالنصوص التي يتناولها إلا أنه ليس بإمكانه التفرد بإرساء نظام مغلق للمفاهيم التي تقوم عليها عملية التفكيك .

فالفاصل بين عمليتي الهدم والبناء يعد نسقاً كشفياً يكشف عن نوع من القراءة المزدوجة التي تتصف بالشمولية ، فالنص - في ظل المرآة التفكيكية – يظهر بصورته الحقيقية وظله المنعكس ، فتستحيل اللفظة أو وحدة البناء النصي تكشف في لحظتها الأولى المعنى الظاهر وتختفي وراء ثيابها الشفيف لتعلن بهاءها الخفي الذي لا يبدو إلا في لحظات العتمة.

وتبدو علاقة المتناقضات واضحة في النظام التفكيكي ، فنظرية التفكيك في الواقع حذرة من محاولات التأثير على التوفيق بين التعارضات أو العثور علي وضع ثبات بينهما ، تنشأ المصطلحات عن العلاقة بين

التعارضات على التوتر ، وفي محاولة للتقليل من شأن هذه الخواص أو إسقاطها يكون على هذه المصطلحات أن تمنح امتيازاً لأحد عناصر التعارض ثم تدعي حتى بدون تعمد أن هذا ليس وضعاً مناسباً " [١٣]

ويقترب هذا المفهوم من نظرية الاختلاف (Defferance) عند دريدا " إنه وجود غريب للعلاقة نصفها دائماً" ليس هناك " والنصف الآخر دائماً " ليس ذلك " ، ويتم تحديد بنية العلاقة ببقايا أو مسار ذلك الآخر الغائب إلى الأبد ، إن النصف الذي هو دائما " ليس هناك " هو بالطبع المدلول – المعنى – الذي تشير إليه العلاقة ، ولكن لا يمكن تعريفها به، والنصف الذي هو دائماً " ليس ذلك " هو الدال ، التجلي الفيزيقي أو المادي ، وتكمن هذه المفارقة في اللغة ذاتها ويترتب عليها أن المعني ملتبس دائماً إنه أبداً " ليس هناك " حيث يوجد النظام الدال ، وكلما غلف النص المعني أكثر في بنية علاماته أصبح المعني مراوغاً أ كثر، وهذا هو المعنى الثاني للاختلاف الذي قد يعني في الفرنسية (التأجيل) ، ويري دريدا أن المعني مؤجل باستمرار في لعبة الدوال في اللغة يجب دائماً الوصول إلي المعني ، لكن الوصول إليه لا يحدث أبداً"[١٤]

إن هذه النظرية تهدف إلى خلق نوع من التوتر العلائقي بين المعنى والنص من ناحية وبين القارئ والنص من ناحية أخرى ،فعلى مستوى العلاقة الأولى تتجه النظرية إلى تأكيد خفاء المعنى وعدم وضوحه ،وأن زهو النص وعلوه يكمن في المعنى القليل ،والعلاقة الثانية تحاول النظرية أن تجعل القارئ معلقاً في رداء النص في رحلة بحث دائمة عن معناه ، ودائماً ما يحتاج إلى بؤرة ضوء تكشف له ستار العتمة .

ومن هنا أصبحت نظرية التفكيك باعتمادها على فكرة الاختلاف - الإرجاء تعد نموذجاً ناقصاً ، وعملية الكشف مازالت تحتاج إلى مكون آخر يتبع فكرة الاختلاف ، ولذلك عضد دريدا نظريته بفكرة المكمل (Supplememt)، وعرف المكمل " أنه نص أو عنصر يضاف إلى آخر أو يعتبر ثانوياً بالنسبة له ، ويعتبر الآخر بنيه أو نظاماً نصياً أكثر اكتمالاً ، و يلاحظ دريدا في دراسته عن رسو" ذلك المكمل الخطير " لا يمكن أن تكون البنية كاملة بدون المكمل ، وإذا كانت إضافة المكمل ممكنة فلا يمكن أن يكون المكمل ثانوياً تماماً " [١٥]

ومن هنا تنطلق قراءة المتناقضات ورؤية النموذج المختلف الذي يخرج الدلالات اللفظية عن إطارها السطحي إلى ما هو أعلى من السطح تنطلق إلى مساحة مفتوحة تتجه بالنص إلى المدلول اللا نهائي.

ومن هنا يصبح النص عند أصحاب المدرسة التقويضية يتمتع بتعددية المعني التي تكون غير قابلة للاختصار أو الاختزال ، ولا يجنح إلى التعايش بين المعاني، ولكن يحاول تفعيلها وتحويلها وتداخلها ، ولهذا لا يستجيب النص إلى التفسير ، دائماً ينحو نحو التفجير ثم يندرج ذلك النص تحت البعد التناصى على اعتبار تفاعله مع سابقه ومعاصره من نصوص .

والتفكيك نظرية تهدف إلي إنتاج تفسيرات لنصوص خاصة أقل مما تهدف إلى فحص الطريقة التي يقرأ بها القراء هذه النصوص ، والطريقة التي تقدم بها ظاهرياً هذه النصوص ذاتها قراءات مفضلة ولا يجب التغاضي عن كلمة (ظاهرياً) في الجملة السابقة ، " فيفترض التفكيك كمقدمة منطقية أولى أن قراءة أي نص تماثل مع خطاب خاص فيه ، إن العملية التي نصل بها كقراء إلى هذا التماثل تتضمن قدراتنا على التعامل

مع الشفرات اللغوية التي تعالج بها معنى النص ، ولأن هذه الشفرات ترتبط بالبنيات والقيم الثقافية ، فإن تلك العملية تتضمن الفرضيات والأيديولوجيات التي تدخلها على النص سواء أكانت خاصة بنا ومعاصرة لنا أم التي نعتقد أنها فرضيات وأيديولوجيات الثقافة التي أنتجت النص " [١٦]

إذاً فالتفكيك ينظر إلى النص بوصفة شريحة خاصة تتعامل مع خطاب يلزم لقراءته منهج خاص يبتعد عن القراءة الذاتية للنص والتفكير الأحادي الذي ينظر للنص من زاوية واحدة تاركاً باقي الزوايا ، والمنهج التفكيكي لا يتعامل مع أرضية النص فقط بل يتعامل مع فضائه المحيط ، فيقرأ الخلفية الثقافية والأيديولوجية للنص .

وتتضح فلسفة التفكيك ومهامه في أمرين : الأول أن التفكيك نكوص دائم لا يتم فقط تفكيك النص موضع الاهتمام ، ولكن تفكك أيضاً تلك النصوص التي قد تمتد إليها جذوره .. إن عملية التفكيك كما يراها – دريدا- ليست مجرد عملية سلبية ، إنها خبرة تنويرية أيضاً لأنها تكشف أيديولوجيات معينة وتجعلها في متناول الفحص ، إنها تسمح بتحليل العلاقة بين اللغة وبنياتها ، والمعنى أو المغزى الذي تدل عليه ، والثاني : إن هذه النظرية تلغي التميز التقليدي بين الكتابة (الإبداعية) أو الأدبية والكتابة الأخرى ، خاصة الكتابة التحليلية والنقدية والأنواع الاستطرادية الأخرى ، ويعتمد التميز أولاً على الحضور الميتافيزقي ؛ أي على فكرة أن للكاتب في الأدب حضوراً حقيقياً في النص ، بينما يختفي الكاتب في الكتابة النقدية وراء النص الأدبي الذي يعتبر أولياً أو يتطفل عليه .

إن أطروحة دريدا عن أولية الكتابة تعيد بناء تلك النصوص وكأنها موضوعة في نطاق يعرض كل النصوص للفحص التفكيكي بصرف النظر عن ذاتها أو موضوعيتها " [١٧]

" وهكذا يبدو أن التفكيك أقرب المشاريع إلى الفكر الفلسفي وألصقها بالتراث الفكري الغربي ، وهو يرفض أن يكون نظرية أو مذهباً لأن ذلك يلغي مبدأ عمله الذي يقوم على غياب المعنى ، وهو إذ يفعل ذلك يتمرد على البنيوية كمشروع نقدي يقوم على أسس العلم التجريبي العقلي الذي يتنافي وما يدعو إليه ، فالبنيوية تسعي إلي القبض على الدلالة داخل النص من خلال إعطائها مركز الاهتمام للغة ، أما التفكيكية فهي دعوة إلى لانهائية الدلالة ، إنها تجعل القارئ هو من ينتج الدلالة ، وهي بهذه الدعوة تحافظ على تجددها واستمراريتها كمشروع لم يكتمل بعد ، أو قل هي إنقاذ للحداثة من الانغلاق الذي نادت به البنيوية " [١٨]

ولعل هناك عدة فروق واضحة بين المنهجين البنيوي والتفكيكي ، هذه الفروق تعد لازمة لتحديد الأسس التي يقوم عليها المنهج التفكيكي ، هناك من يخلط بين المنهجين وخاصة عند قراءة النص فيكون منهجه تفكيكياً ولكنه يتبع خطوات المنهج البنيوي مما يخلق تداخلاً بين المنهجين ، وهذا التداخل يصل بقارئ النص إلى لاشيء أو إلى نتائج تتسم بالغموض واللامنطقية .

ومن هذه الفروق أن النظرية البنيوية " افترضت عموما أن الشفرات التي تتكون منها اللغة تتمتع بثبات داخل النظام . يفحص التفكيك هذه الفرضية ، تسلم البنيوية قبلا بوجود التعارضات المزدوجة في الثقافة ولغتها .. ترى البنيوية أن مصطلحات مثل (رجل /امرأة / طبيعة / ثقافة /

مرتفع / منخفض ..) تساعدنا على تنظيم الواقع من خلال اللغة ، ومع هذا يرى التفكيك أن هذه التعارضات ليس لها قيمة .. إن الطبيعة الظاهرة التي تختار المصطلح الأول تتضمن في الحقيقة ترتيبة أو أسبقية تفرض غالبا بلا وعي على التعارض ، وفي الكلمات الأخرى يكتسب المصطلح الأول قيمة إيجابية والثاني يكتسب قيمة سلبية ، مثلا يمكن تعريف المرأة بأنها الآخر بالنسبة للرجل ، ويمكن بالتالي في ثقافة تفضل قواعد الرجال والذكور – رؤية النساء في مرتبة تالية للرجال " [١٩]

ويتضح من التفريق السابق أن النهج التفكيكي يهدف إلى فحص المفردة، وأن المفردة – داخل دائرته – خاضعة للتفكيك الدلالي وأنه لا توجد مفردة ولدت عبثا أو لا قيمة لها ، حتى العلاقات التي بين الألفاظ في النظام التفكيكي لها نتاجها الخطي في النهج القرائي للنص .

ومن هنا يقدم المنهج التفكيكي عند دريدا على أسس واضحة ، هذه الأسس تتضح في أربع نقاط:

١- قوض الفكر الغربي ووجه النقد له لكونه فكرا متمركزا حول (مركزية اللوجوس).

٢- إدانة الفكر الغربي لتمركزه على سلطة الصوت (الحضور) .

٣- الدعوة إلى اللامركزية ، لا مركزية العقل والصوت .

٤- الدعوة إلى إحلال علم الكتابة بديلا عن الخطاب الشفهي .

وبهذا يكون دريدا قد رفض المنهج البنيوي القائم على مركزية اللغة ومركزية الصوت ، لأن المنهج التفكيكي لا يقوم على مبدأ الثبات ، ولا يتحرك وفقا لمركزية محددة ، ولكن جميع خطواته تنطلق من اللامركزية

وتتخذ من التفاعل الضدي مسارا لإدراك الدلالة المتغيرة ، وكذلك رفض دريدا الخطاب الشفهي واهتم بالكتابة ، وذلك لأن النص الشفهي لم يعد مناسبا في ظل التغيرات الحداثية التي طرأت على النص ، فالنص الحداثي بما يشتمل على لغة خاصة يميل إلى الترميز والتشفير والمداخلة والمزاوجة والخروج عن النمطية والاقتراب من النموذج البعدي وغيرها– إذا قدم مشافهة – فإن حاجز التفاعل بين النص والمتلقين سيصبح سورا عاليا لا يمكن تجاوزه أو تخطيه ، لذا فكان على دريد – في ظل نظريته – أن يقدم النص المكتوب على النص الشفهي .

ويتجه التفكيك بشكل أساس إلى نقد الطرح البنيوي ، وإنكار ثبات المعنى في منظومة النص ، واختزال الفرد المُنتج ، وتحويل مسار السلطة الدلالية إلى حركة الدال ، وتحليل الهوامش والفجوات والتوقفات والتناقضات والاستطرادات داخل النصوص ، بوصفها صياغات تسهم في الكشف عن ما ورائيات اللغة والتراكيب .

ويمكن القول أنّ هناك استحالة دائمة للتحديد الدقيق للتفكيك ولإجراءاته النقدية لأنها في صيرورة دائمة ، ومتحركة مع الطرح السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتحول دائماً ، وبالرغم من أنّ التفكيك لا يفقد شيئاً من خصوصيته إذا قيل باستحالة تحديده ، إلاّ أنّ الدخول إلى حصنه محكومٌ بأنواع من المخاطر ، إذا لم يتسلح الناقد بإجراءات نقدية دقيقة وصارمة.

ويمكننا القول أن التفكيك نظرية نقدية شاملة تبغي إعادة قراءة النصوص الفلسفية والمعرفية والثقافية والإبداعية المتنوعة ، وهذه النصوص تخضع لعمليات معقدة ناتجة من علاقات النصوص المتناصة

بعضها مع البعض الآخر ، ويُعد تراجع البنيوية ناتجاً عن فشلها في تحديد السمات الكلية لحركة الدوال ، ومراهنتها على تموضع البنى في أنساق تحيل إلى مدلولات متعددة نهائية ، وتُوصف بأنّها محددة ، فضلاً عن عدم إعطائها منزلة فاعلة للمتلقي ، لأنّ النص عندها هو من يقدم المعنى إلى متلقيه ، ويمارس دور الفاعل والمفعول في الوقت نفسه ، فكسب المعنى من جانب المتلقي ، مرهونٌ بما يتيحه النص ببنائه وتعدد أنساقه وحركة بنياته ، وانتظام تراكيبه.

ويمكن الحديث عن أهم المعطيات النقدية التي قدمها دريدا لمشروعه النقدي التفكيكيّ من خلال النقاط الآتية :

١- الاختلاف Difference .

٢- نقد التمركز.Critique of Centricity.

٣- لعبة الدال أو الدال العائم .Theory of play.

٤- علم الكتابة.Grammatology .

٥- الحضور والغياب Presence and Absence .

تحيل هذه العناصر مجتمعة إلى نتيجة مفادها : أنّ كلّ شيء مؤقت في المشروع التفكيكي ، لأنّ جميع التراكيب والبنى هي في حالة مستمرة لا نهائية ، وقد تأتى ذلك من انحطاط النموذج الإنساني أمام النص ، وإنكار التقاليد الإبداعية لولادة النتاج البشري، وعدم الثقة بالحقيقة المطلقة، وترجيع كلّ شيء إلى عدم ثبات، ... إلخ .

إنّ تلمس الحقيقة في التحليلات النصية في المشروع التفكيكي هو محال ، وهناك تفسيرات مختلفة للنصوص لكنها لا تستند إلى حقائق

نهائية ، ودور التحليل في هذا المشروع هو تحريك تفسيرات متعددة في قراءة نص معين ، ووفقاً لذلك لا تمثل اللغة انعكاساً طبيعياً للعالم ، لأنّ بنية النص هي التي تنظم ترجمتنا الفورية للعالم ، وهي التي تخلق مجموعة تجاذبات تسهم في فهم الحقيقة التي تتصف في المشروع التفكيكي بأنّها نسبية.

يشير المصطلح الأول (الاختلاف) إلى السماح بتعدد التفسيرات انطلاقاً من وصف المعنى بالاستفاضة ، وعدم الخضوع لحالةٍ مستقرةٍ ، ويبين (الاختلاف) منزلة النصية (Textaulity) في إمكانيتها تزويد القارئ بسيل من الاحتمالات ، وهذا الأمر يدفع القارئ إلى العيش داخل النص ، والقيام بجولات مستمرة لتصيّد موضوعية المعنى الغائبة ، وترويج المعنى- حسب دريدا - يخضع دائماً للاختلاف ، والمعنى من خلال الاختلاف يخلق تعادلات مهمة بين صياغات الدوال والاطمئنان النسبي إلى اقتناص الدلالة [٢٠]

ويكشف الوقوف على دلالات مصطلح (الاختلاف) الصياغات المستقبلية - فضلاً عن الآنية - للطرح التفكيكي ، وذلك لتشعب الارتباطات الفكرية والمعرفية مع هذا المصطلح ، إذ يشكل - كما يرى البحث - البؤرة الأساس التي تنطلق منها مقاربات الطرح النقدي لجدلية الحضور والغياب ، ومفهوم الانتشار (Dissemination)، والأثر (Trace) ، ولعبة الدال ، والمتاهة (Aporia) ، وحركة الدال والمدلول ، وتغييب الدليل ، ... الخ ، ويشير دريدا إلى أنّ الصفة المشتقة من فعل خالف / اختلف وُلّدت مصطلح (Difference) الذي يجمع صفاً من المفاهيم النسقية ، وغير القابلة للاختزال ، يتدخل كلّ واحد منها - بل تتزايد فعاليته - في لحظة حاسمة من العمل الإبداعي ، وتلك المفاهيم يجمعها

عنصر المغايرة ، الذي يعدّه دريدا الجذر المشترك لكل المتعارضات المفاهيمية التي تُسهم في شرح اللغة ، واختراق نظامها [٢١]. لقد عَمدَ دريدا إلى بيان صفة التغاير الدلالي مع وحدة الأداء الصوتي ، مستخدماً التوافق القصدي المزعوم بين مفردتي(Differance)، و (Difference)، فتغيير الصائت (e) إلى الصائت (a) هو تغير في بنية المدلول ، حيث تحول المعنى من الاختلاف والتغاير إلى الإرجاء والتأجيل ، وجاء هذا التغير ليؤكد منزلة المكتوب قياساً إلى المنطوق في حمله لدلالاتٍ ذات فاعلية فلسفية ومعرفية ، وهذا التحول الجزئي مهم في عملية إنتاج الاختلافات ، وهي مهمة أيضاً في عملية الدلالة التي تُوصف بأنها لعبة صورية من الاختلافات ، والمغايرة هي اللغة المنهجية للاختلافات وللتباعد الذي يجعل العناصر يحيل الواحد منها إلى الآخر ، وبهذا تحيل الإنتاجية التي توحي بها المغايرة إلى حركة توالدية داخل لعبة الاختلافات التي هي أساساً - وكما يقول دريدا - نِتاج تحولات (Transformations) [٢٢].

ومسألة التحول الدلالي من الاختلاف إلى الإخلاف ، أو من المغايرة إلى التأجيل ، أو من الضدية إلى الإرجاء ، ليست عملية تلاعب بالمفردات أو الصوائت حسب ، إنما هي عملية عقلانية قصدية تهدف إلى إعلان انتصار البنى في احتكارها للمعنى ، وسحب البساط من النشاط الإنساني الذي كان مُسلطاً عليها في يوم من الأيام ، وتهديم الثنائية التضايفية التي حكمت انتقال المعنى بين النص والقارئ ، بمعنى : استسلام نهائية المعنى الثابت أمام تغاير المعنى المتعدد اللانهائي ، فضلاً عن اتساع النسيج المفاهيمي الحامل لدلالاتٍ متغايرة ، ودور عملية الاتساع هذه في تقديم المعنى بصورته اللانهائية المؤجلة بصورة دائمة.

ومن هنا تصبح بعض المفاهيم التي تتعلق بفهم النص مثل : الوضوح والبساطة وإضاءة المعنى والتعبيرات المباشرة والمعنى الواحد والتواصل الدلالي ، من المصطلحات التي تقع تحت عدسة المجهر التفكيكي ، وتحل البدائل الأخرى التي تعد أساسا في الطرح التفكيكي مثل : الانتشار والاختلاف ولعبة الدال .

إنّ المعطيات السابقة تقود إلى أن يغدو كل معنى مؤجلاً بشكل لا نهائي ، وكل دال يقود إلى غيره في النظام الدلالي اللغوي ، دون التمكن من الوقوف النهائي على معنى محدد ، وتغدو عملية التوالد للمعاني مستمرة انطلاقاً من اختلافاتها المتواصلة ، التي تبقى مؤجلة ضمن نظام الاختلاف ، وتظل محكومة بحركة حرّة لا تعرف الثبات والاستقرار، وكل هذا يشحن الدوال ببدائل لا نهائية من المدلولات ، وهذا يكشف أنّ هناك بناءاً وهدماً متواصلين من أجل بلوغ عتبة المعنى [٢٣]

لقد أراد دريدا من الدال أن يكون بنية مناقضة لذاتها أو لغيرها ، والهدف من ذلك إدخال إصلاحات واسعة ، ومشاريع متطورة متعددة على أوضاع الدلالة الساكنة ، ثم الانتقال من المعنى المُوجَه في عهدهِ البائد إلى المعنى المغيّب ، والمنظِم لاستثمار فعل التراكم المعرفي الناتج من حوار مراكز دلالية لنصوص مختلفة ، والمطمح التفكيكي من عملية التحليل يكمن في تسيير فعاليات هذا المعنى المغيّب ، وهذا التطور الحاصل في رؤية المعنى هو عين التطور الكامن في ورشة القرار السياسي ، لكن لا يمكن رسم تحديد دقيق لأسبقية التأثر فيما إذا كانت للمشروع النقدي ، أم كانت للمشروع السياسي ، وحسب البحث القول أنّ الحديث عن الأسبقية هو حديثٌ نسبي ، لأنّ المشروعين دخلا في علاقة جدلية متضايفة ، ومتبادلة ، ومتحاورة في الوقت نفسه.

" إنّ تسليط الضوء على التطورات النقدية المتلاحقة في الطرح التفكيكيّ ، يسهم في تشكيل المُناخ الفكري المحيط بالمعطيات النقدية للتفكيكية التي تظهر وكأنها منفصلة عن بعضها ، والحقيقة أنها مترابطة ، وتضفي الواحدة منها على الأخرى لأنّها تأتت من فكرٍ متقدٍ ذي أبعاد لاهوتية وفلسفية موغلة في القِدم فضلاً عن الأبعاد الإيديولوجية التي تسخره للعمل لصالح هذا الاتجاه أو ذاك.

لقد التجأ دريدا بتكتيكاته إلى حصنٍ متنقل من الاصطلاحات ، لم يكن من الممكن اختزالها ، وقد كان فعل الاختزال أكثر هذه الاصطلاحات فعالية حيث أثبت على صعيد التحليل والبيان مقاومته لفعل الاختزال ، وعدم الإمساك بمعنى محدد له ، وهذا التوجه أكسب دريدا ـ حسب نورس ـ بناء نظام الأشكال المختلفة بوصفها شرطاً مسبقاً ، وبمجرد تثبيت الاصطلاح ضمن النظام المقدم فإنه يصبح بناءاً مستخدماً بطرق تنفي رؤاه الداخلية المتطرفة [٢٤]

ويستمد الاختلاف تموضعه في المشروع النقدي التفكيكي من خلال سمتين: [٢٥]

١ـ إنّه يقوم على اختلاف الدوال ، وينتج عنه اختلاف المدلول ، وتقديم لغة الكتابة على لغة الحديث ، أو تقديم المكتوب على المنطوق.

٢ـ يتخذ الاختلاف ـ عادةً ـ شكل الثنائيات المتقابلة أو المتضادة : (الخير ـ الشر ، الطبيعة ـ الحضارة ، الإنسان ـ البنية ، ... الخ) ، والعلاقة بين الدال والمدلول في هذه الثنائيات المتضادة تقليدية وليست منطقية ، وتختلف باختلاف السياق الواردة فيه ، ويترتب على

ذلك أنّ المعنى الأدبي لا يمكن أن يكون واحداً أو محدداً أو واضحاً ، حيث تعرض لنوع من التخالف لا التوافق ، والتفكيك لا التجميع.

ويُقدم المعطى الثاني من معطيات دريدا (نقد التمركز) ، إمكانية كبيرة في فحص منظومة الخطاب الفلسفي الغربيّ عبر قرونه الممتدة زمنياً ، والمكتسِبة لخصوصية معينة في كلّ لحظةٍ من لحظاتها ، بوصفها المراحل المتعاقبة للبناء التدريجي للفكر الأوربي الحديث ، ويكشف هذا المعطى في الوقت نفسه عن التأمل الفلسفي المتعالي ، ويعمل على تعريته ، وتمزيق أقنعته بوصفها رواسب حجبت صورة الحقيقة.

" ويُصر دريدا على أنّ لكل تركيب مركزاً سواء أكان تركيباً لسانياً أم غير لساني ، فلسفياً أم غير فلسفي ، وحمل التراكيب لمراكز محددة يعطي أهمية لحركة الدوال ، لأنّ المركز ـ حسب دريدا ـ هو الجزء الحاسم من التركيب ، إنّه النقطة التي لا يمكن استبدالها بأي شيءٍ آخر [٢٦]

" ويجب التفريق بين أهمية المركز بالنسبة للتركيب النصي ، وبين نقد التمركز ، فالمركز شيء إيجابي لحركة الدلالة والمعنى ، أما التمركز فهو شيءٌ مُفتعل يضفي المركزية على من هو ليس بمركز ، ويقود ذلك إلى احتكار التكثيف (Decondense)، واستبداد النموذج (Exemplarity) بمعنى قيام بنية مركزية تدعي لوحداتها النموذج المتعالي الذي يصح تطبيقه على كلّ نص ، في زمان غير مقيّد ، وتَوجُه دريدا في هذا الإطار كان منصباً على نقد التمركز بوصفه دلالة سلبية ، ومدح المركز بوصفه العنصر المشع للدلالة ، والنقطة التي ينبثق منها اختلاف المعنى

إننا نستطيع أن نقف عند مصطلحين ، يمثلان جدلية نقدية في البحث التفكيكي ؛ مصطلح المركز ، وهو يختص بالجانب اللغوي للنص ، ويعنى

بترتيب الأنساق ، وله دوره في خلق بدائل مستمرة في النسق النصي ، أما التمركز فيتضح دوره وسلطته في إنتاج المعنى وفعل الكتابة ، وهو ما دعا (دريدا) إلى تقويضه ؛ ليصل إلى قصدية محددة تتجه إلى تأكيد لانهائية الدلالة ، تلك التي تتضح من خلال نقد التمركز ، وهدم سلطة الحقيقة الواحدة .

ويهدف دريدا من نقد التمركز حول العقل (Logoscenterism) إلى تحطيم الأصل الثابت للمعنى بوصفه مصدراً ، وتقويضه وتحويل كل شيء إلى خطاب ، وتذويب الدلالة المركزية ، ومن خلال هذه العملية تتحول الكتابة إلى أهمية قصوى ، ويصبح الاهتمام بالكلام مضمحلاً ، ولا شك أنّ التمركز حول العقل في الفلسفة الأوربية قد نهض على الاهتمام بالكلام على حساب الكتابة ، وقد فتح هذا التوجه مركزاً آخر هو التمركز حول الصوت" (٢٧).

وقد شكلت نقطة اللوجوس بحدّ ذاتها تشعباً دلالياً ، وتفرعاً إيحائياً ، نظراً لما تحمله من موروث فلسفي ولغوي ، وقد ربطها دريدا بالتمركز ، ووظفها لكشف تحيزات الفكر الغربي وتمركزه حول المنطوق على حساب المكتوب ، وتحيل مفردة اللوجوس التي تختص بقِوى التحكم بالكون ، وصفة من صفات الذات الإلهية ـ كما صوّرها الفكر الغربي ـ تحيل إلى فضاءات ثلاثة : (فضاء اللغة والتشكل اللساني ، وفضاء الفكر والعمليات الذهنية ، وفضاء الكون الحدسي)، وتُشكل هذه الفضاءات المُعادل الحقيقي لمصدر العقلانية في الكون كلّه ، فضلاً عن أنّ المعنى الآخر للوجوس يتحدد بصفتي الحق والقانون ، بمعنى آخر : يتحدد بمبدأ الهيمنة والسيطرة ، والشعور بالسيادة والتعالي ، إنّه بنية الفكر الغربي منذ عهده الأول مع اليونانيين وحتى عصر سيادة الكنيسة(٢٨)

ويتجه التفكيك لنقد المركزية الغربية وركائزها العقلية التي تمحورت حول فكرتيـن: (التمركز حول العقل ، وفكرة الحضور) ، وطمحَ هذا التوجه إلى تقويض كل المراكز الدلالية وبؤر المعاني التي تشكلت حولهما، لأنّ الممارسة الفكرية الغربية حول اللوجوس أنتجت مركزاً عقلياً أقصى كل ممارسة فكرية لا تتمثل شروطه ، لأنه ربط بينه وبين الحقيقة ، وأنتج نظاماً مغلقاً من التفكير ، وقد تواكبت فكرة الحضور مع فكرة اللوجـوس ، لذلك اتجه التحليل التفكيكي إلى نقضهما معاً ، أي نقض التمركز حول العقـل ، ونقض فكرة الحضور التي أطلق عليها دريدا : ميتافيزيقيا الحضور[٢٩]

ويشير المعطى الثالث (لعبة الدال) إلى تمجيد التفكيكية لصيغة (اللّعب الحرّ) اللامتناهي لكتابة ليست منقطعة تماماً عن الإكراهات المغيّبة للحقيقة ، وتأكيد المعطى الثقافي للفكر والإدراك ، وغياب المعرفة السطحية المباشرة ، واستلهام أفق واسع من المرجعيات الفكرية المماثلة ، والفلسفية المعقدة ، والنظم المخبوءة ، وطرائق التحليل الخاصة، وتتبنى التفكيكية في هذا السياق وبشكل واضح تطبيق استراتيجيات نصية وخطابية للقراءة تقلل من أهمية أيّة إحالة واثقة على منظومات (الابستيمولوجيا ، والأخلاق ، والحكم الجمالي .

وبالرغم من الصيغة التي يرتضيها التحليل التفكيكي لنظرية اللعب القاضية بإحالة الدال إلى دال آخر مع تغييب متعمّد للمدلول ، إلاّ أنّ تلك الصيغة محكومة بمجموعة آليات ـ تشبه القوانين ـ يسطّرها الناص (الواضع) ، ويستخدمها المتلقي (اللاعب) ، وقد حدّد (بيتر هوجنسون) تلك الآليات بما يأتي [٣٠] : (اللغز The Enigma ، التخطيط Adumbration، الكناية Allegory ، الوهم Illusion ،

الغموض Ambiguity ، المونتاج والكولاج Montage and Collage، الأسطورة Myth ، الهذيان Nonsense ، والمفارقة Paradox، والهزل Burlesque ، والتسلية Pastiche ، والأضحوكة Hoax ، والجناس Puns ، والإقتباس Quotation ، والرموز (Symbols وتعمل هذه الآليات على تلون الدوال ، وتعدد القراءات ، وتشظي الدلالة ، وانتشار المعنى بشكل متواصل .

ولا تكاد المصطلحات والآليات السابقة تخلو من الدلالات السلبية في لحظة تموضعها في النص ، وقد أتاحت هذه الدلالات إمكانية إعادة توظيفها ضمن سياقات القصد التفكيكي القاضي " بحرية الرؤية ، واستخلاص المعاني من النص إمّا جِدّاً وإما هزلاً ، وإما حقيقة وإما تمثيلاً، وبحرية حركة الذهن مع النص طالما أُستُبعِدت فكرة الإحالة إلى مركزٍ عقلي [٣١]

وتقدم نظرية اللعب تفسيرات متعددة ، وتمنح احتمالات مستفيضة ، وتعكس هذه الإمكانيات الهائلة لنظرية اللعب، الموقف المعارض لمسيرة اختزال الكتابة ، وتقزيم الدال ، الممثلين لنبرات التمركز حول العقل ، والتمركز حول الصوت [٣٢]

" وقد تأتى موقف نظرية اللعب هذا من قصدية دريدا في التعامل مع النص بوصفه موضوعاً غير متجانس ، فيه قوى تعمل على تفكيكه باستمرار ، فضلاً عن طريقته في التموضع داخل البنية غير المتجانسة للنص ، والعثور على توترات أو تناقضات داخلية يقرأ النصُ من خلالها نفسَه ، ويفكك نفسه بنفسه ، إنّ بنية النص الداخلية حُبلى بالقوى المتنافرة التي تكمن وظيفتها في تقويض النص وتجزئته [٣٣]

إنّ القراءة الدقيقة لمعطيات دريدا في ظل (نظرية اللعب) تقدم تصعيداً دلالياً لمركزٍ مُهشم ، وقراءة مخصوصة بنشاط الدال ، فضلاً عن الدخول في جدلية مع دلالات (الجدّ) التي يستبعدها دريدا ، مؤكداً على صفة التقابل بين (الجدّ) و (اللعب) ، لاغياً ذاتية اللعب وجوهره ، ليدخل في بنية الاختلاف ، ويفتح إمكانية الازدواج والنسخ ، ويتتبع التضمين اللاهوتي المتخفي في انساق اللعب وخطواته ، ويبين دريدا أنّ النص لا يكون نصاً إذا لم يخفِ قانون تأليفه وقاعدة لعبته [٣٤].

ولا شك أنّ تخفيض نسبة الحضور في سياسة البناء النصية تزيد من فعالية القراءة وحضور المتلقي ، لأنّه هو المَعنيّ بثقافة الغياب التي يقصدها النص ، وهو المُدرك لعملية تحول الاختلاف ، وتصيّد التغاير.

تلك الأفكار التي دعا إليها دريدا جعلت بعض النقاد يطلقون على فكره بأنه نوع من (الهرطقة) "إنّ الآفاق التي يريد دريدا تقديمها للنقد المعاصر تنطوي على أُسُسٍ خادعة ، ومداعبات يُطلق عليها (الهرطقة)، إنّه يحاول توسيع مدار الفانتازيا النصية ليصل بالدوال إلى الحدود الدنيا للاتزان الدلالي ، إنّه يدفع المعنى إلى حقولٍ لا متناهية من التجنيد المعرفي والثقافي ، فالتفكيك ، والتقويض ، والتفتيت ، والتهشيم ، كلّها مفردات تحيل النص إلى ثقافة ظله الناتجة من تفكيك الأنظمة اللغوية ، إنّ التحول الدلالي في منهجية دريدا هو تحول من سجن اللغة The Prison-House of Language إلى سجنٍ آخر لا يقل خطورة عن السجن البنيوي الأول ، وهو سجن الدال The Prison-House of (Signifier) . [٣٥]

ولعل هذا الرأي يحتاج إلى نظر ، فمن الإنصاف أن ننظر إلى البحث التفكيكي نظرة تبتعد عن التعصب وتضع المحتوى التنظيري في الميزان النقدي الذي يرجح كفة المنهج أو يسقطها ، فإذا نظرنا إلى آليات المنظومة التفكيكية كما طرحها (دريدا) فسنجد أن (دريدا) لم يهدف من وراء منهجه هذا إلى إلغاء النص ولا إلى الحكم بعبثية القارئ أو تغييب الدلالة ، ولكن مشروعه المنظم الذي اعتمد على فلسفة عقلية تهدف إلى إخراج النص من كيانه الأحادي الدلالة إلى منظومة لانهائية توجهه إلى علاقات متعددة ، وكذلك من كيانه السلطوي الذي يضع المؤلف متربعا على عرش النص وله سلطة التتويج إلى إعطاء القارئ مساحة من الحرية ليحيل النص إلى علاقة جدارية يشكلها القارئ وفق معطياته الثقافية المتعددة ، هذا المشروع يعد بداية سفر الخروج من البنية المقمشة التي طرحها المنهج البنيوي والسياج اللغوي الذي فرضه المنهج الأسلوبي إلى رقعة متباينة الألوان ووارفة الظلال لا ترفض البنية كلية ولكن ترفظ أحاديتها ومركزيتها ، وتتخذ من اللغة أداة لتفكيك البناء وأثرا له وجوده داخل النص .

أما المعطى الرابع (علم الكتابة) فيميل إلى منظومة دقيقة بنى عليها التفكيك أغلب مقولاته ، ونقدَ من خلالها مسيرة العقلانية النسبية ، وتشكل خطابها الفلسفي ، واستحداث هذه المنظومة يعبر عن موقف التحليل التفكيكي من عصور اختزال الكتابة ، وتهميش الدال ، ونزعة التمركز حول العقل والصوت ، ومجمل المعطى النقدي لعلم الكتابة (Grammatology) يعدّ نقداً لثنائية سوسير (الدال والمدلول)، ورؤيته لدور العلامة وفاعليتها في بناء النص ، فالدال عند سوسير هو تشكل سمعي وبصري ، وصورة لحمل الصوت ، وقد عدّ دريدا ذلك

تمركزاً حول الصوت [٣٦] ، وصورة واهمة لحمل المعنى ، وقد اقترح (دريدا) استبدال (العلامة) بمفهوم الأثر .

" والأثر هو كلّ عنصرٍ يتأسس من آثار العناصر الأخرى في النسق، عبر لعبة الاختلافات المتعددة التي تفضي إلى خلق فواصل بين عناصر اللغة ، وهذا يحيل إلى وجود الاختلاف في داخل انساق النص ، أي اختلاف وإرجاء وإزاحة ، ويطلق دريدا على هذا النسيج (الكَتَبَة : (Gramme أو وحدة الكتابة أو عنصر الكتابة ، ومفهوم الكتابة الأصلية عند دريدا لا يُحيل إلى أصل ، وإنما إلى ما يسبق التقسيم الثنائي (الدال والمدلول) إلى عنصرٍ دلالةٍ ماديّ ، إنّه وصفٌ لكتابةٍ تتجاوز القسمة التقليدية (كلام ، وكتابة) وتشكل رؤية جديدة لسيادة الكتابة على الكلام ، وتقوم هذه الفكرة بشكل أساس على تفكيك الميتافيزيقا الغربية التي أقامت صرحها حول تفعيل منزلة الكلام على حساب الكتابة ، والتَمحور حول العلامة اللغوية ، التي امتازت بازدراء كبير لنشاط الكتابة وفاعليتها[٣٧] ، وقد وسع دريدا من ميدان التحليل التفكيكي في إطار علم الكتابة ليشمل تحديد أصل العالم بوصفه أثراً [٣٨]

ويرتبط مفهوم الأثر في منظومة التفكيك بمفهوم الحضور ، ماحياً التوجه الميتافيزيقي ، ومكوناً التلاعب المتبادل بين ضدي المعنى ضمن حقل الاختلاف ، والأثر الأصل يرتكز على إدراك وظيفة الاختلاف ، وتصبح قضيته قضية الإدراك ذاته ، فالكلمات المُتسِمة بالنشاط الدلالي لا تظهر أبداً بذاتها دون الاختلاف والتضاد ، ودون بنية العلامة التي تمنح كل مفردة شكلها وهويتها ، إنّ فضاء الأثر الدلالي يستدعي التأمل في عملية الظهور (الحضور) المنطوية على بنية ضدية تجعل من الدوال

كتابة قابلة للإدراك ، ومؤسسة على إمكانية تعدد المعنى من جهة ، ومحو حضور المرء ذاته من جهة أخرى [٣٩]

وقد جاءت مقولة (الأثر) لتمحو احتفاء الذات النقدية بالكلام ، وتجعل من تهميش الكتابة انطلاقة لها في بناء الموقف النقدي الجديد في ظل الطرح التفكيكي ، القاضي بقلب المعادلة الميتافيزيقية من (الاحتفاء بالكلام وتهميش الكتابة) إلى (الاحتفاء بالكتابة وتهميش الكلام)، وقد تأتى ذلك بسبب سعي التحليل التفكيكي من التحرر من قيد الأحكام الإحصائية التي تغلغلت في ميادين البحث والتحليل اللغوي لاسيما في السيميائية ، ودراستها عن ماهية العلامة ووظيفتها ، وقد نُظِر إلى الأثر في هذا السياق بوصفه المفهوم البديل للعلامة ، والاختلاف المتواصل للدوال [٤٠] ، والعملية المستمرة لتعدد المعاني ، ولذلك صرح (كيلر) بأنّ الكتابة عند دريدا تعود إلى مزيد من الكتابة المتواصلة من دون حدّ معين لمعانيها[٤١]، إنّها بمثابة المقطوعة الموسيقية ذات المواضيع المختلفة التي يطلق عليها (fugue) .

ويتجلى ذلك في مصطلح (Pharmakon) الذي يعني (الدواء ، السم، العلاج ، الترياق ، ... الخ) ، وقد ذكر دريدا أنّ (Pharmakon) يمارس علمه بالإغواء ، فهو يدفع كل القوانين المألوفة والطبيعية ، وهو متضمن في بنية اللوجوس ، وهذا التضمن إنّما هو تضمن هيمنة وقرار ، ولا يمكن السيطرة على نسقه النصي سيطرة مطلقة ، ودلالاته تستطيع نفي ذاتها من خلال اختلاف بنية حركاتها ، وتمثلاتها لمعانيها [٤٢]

ومن البنود الأخرى في هذا الإطار مصطلح : التكرارية (Iterability) الذي يشير بشكل أساس إلى قابلية اللغة على التكرار ، لا على معنى

فعل الكلام (Speech Act) وتفريعاته ، والتكرارية قضية ترتبط بتكرارية الأصل ، مثل اعتماد الأثر على (الأثر الأصل) ، واعتماد الاختلاف على (الاختلاف الأصل) ، وتُعدّ التكرارية أصل لكل ما يقبل الوجود ، وهي شرط إمكانية إعادة الإنتاج والتمثيل والاقتباس ، فضلاً عن أنّ احتمالية التكرار هي أساس احتمالية الغياب ، وتعدد المعنى ، وتغييب المدلول ، والتكرار هو أساس الهوية لأنه يعتمد على إدراك علامات المشابهة بين الهوية وآخرها ، وتعتمد هذه العلامات في الوقت نفسه على قابليتها وقدرتها على الاستنساخ والتكرار ، حتى قيل : أنّ الهوية القابلة للتكرار هي الهوية المثالية ، وبدون التكرار لا وجود للحقيقة حسب الرؤية التفكيكية. (٤٣)

ولا شك أنّ مصطلحات مثل : (الأثر) و (التكرارية) و (الانتشار - التشتت) قد أحالت إلى فضاءات التشكل الدلالي لقيمة الكتابة من جهة ، ولتعدد المعنى واختلافه من جهة أخرى ، هذه الفضاءات قد كشفت ميل اللوجوس وسيادته على الفكر الغربي لقرون عديدة ، إنّ علم الكتابة الذي اقترحه دريدا أثبت أنّ الخصائص الشكلية النحوية تقبل البناء والتقويض ، وأنّ النحو بخواصه القائمة على خدمة المعنى وتصوير الحقيقة والوجود، قادر على خلخلة البنية الدلالية نفسها ، بل انّ النحو غدا المعادل الحقيقي لمفهوم الكتابة في علم الكتابة (٤٤)

" وقد وُصِف هذا العلم - كما اقترحه دريدا - بأنّه نظام يُؤسِس العملية الأولية التي تنتج اللغة ، ويظهر هذا النظام على خلفية من نشاط البحث اللساني السيميائي ، ويطمح هذا العلم أن يحل محل السيميائية التي طرحها سوسير ، لأنّها تتضمن تمركزاً حول الصوت ، وقد استطاع دريدا نَقد هذا العلم الأخير ، وتقديم البديل له المتمثل بعلم الكتابة الذي

يفترض عدم وجود شيء قبل اللغة أو بعدها ، فجميع المفاهيم الميتافيزيقية التي تدعي تمركزها وأسبقية وجودها على اللغة مثل (الحقيقة ، والعقل ، ...) هي من نِتاج المجاز والاستعارة ، وبهذا تكون اللغة هي الأساس في تشكيلها ، لذلك سبق وجودها وجود تلك المفاهيم الميتافيزيقية [٤٥]

إنّ استخدام مصطلح علم الكتابة هو استكشاف لأبعاد التمركز حول الكلام الذي سار مع عصور الفلسفة الغربية منذ أفلاطون وإلى العصر الحديث ، وتحديداً (منتصف القرن العشرين) وقد تأتى تركيز الخطاب الفلسفي الغربي على عنصر الكلام وإهمال أو تهشيم الكتابة نتيجة كرههم لها ، وخشيتهم من قوتها بوصفها ذات إمكانيات كبيرة في توسيع الأفق الدلالي ، فضلاً عن قدرتها في تدمير الحقيقة الفلسفية التي يرى الفلاسفة أنّها حقيقة نفسية خالصة وشفافة ، ورأوا أيضاً أنّ تدوين الحقيقة بالكتابة هو بمثابة تدنيس لها ، وتُثبت الكتابة ـ حسب الخطاب الفلسفي ـ وَضعَاً جامداً للمعنى لأنّها تقوم بذلك بمعزل عن النسق الحيوي الذي يفترضه الكلام المعبر عن الحقيقة ، وقد رأى أفلاطون (ـ ٣٤٧ ق.م) في هذا السياق أنّ الكتابة هي عاجزة بشكل دائم ، ومتطفلة على ميادين الكلام ، وهي محاكاة ميتة للفعل الكلامي [٤٦] .

وفي هذا الإطار كانت الكتابة على الدوام تابعة لرتبة الكلام وخاضعة له ، في حين أعطى التحليل التفكيكي منزلة عظيمة لها ، وجعلها بمنزلة الكلام بل جعلها تتفوق عليه [٤٧] .

وقد أكـدّ تودوروف أنّ الكتابة تقدم اللغة بوصفها سلسلة من العلامات المرئية التي تعمل في غيـاب المتكلم ، وأنّ تلك العلامـات تعمل على تقديم دلالاتها طبقاً لطـابع الاختلاف الذي يسـودها . [٤٨]

وتمتاز تلك العلامات بخصائص مهمـة تمتلكها الكتابة ولا يمتلكها الكلام ، منـها: [٤٩]

١- يمكن تكرارها مع غياب سياقها.

٢- قدرتها على تحطيم سياقها الحقيقي ، وقراءتها ضمن أنظمة سياقات جديـدة

٣- قابليتها على الانتقال إلى سلسلة جديدة من العلامات لتشكيل فضاءٍ جديدٍ للمعنى

٤- قدرتها على الانتقال من مرجع حاضر إلى مرجع آخر في السياق النصـيّ.

أما المعطى الأخير (الحضور والغياب) فيشكل تتويجاً نقدياً للمعطيات السابقة ، لأنه يمثل الثمرة المعرفية للتحليل التفكيكي ، والهوية المحدِدة له، وهو الأصل في الرصيد النقدي للطرح التفكيكي ، لأنّ جميع إجراءات المسيرة النقديـة للتفكيك تخضع لحضـور الدوال وتغييب المدلول ، فضلاً عن أنّ معطيـات (الاختلاف ، ونقد التمركز ، ونظرية اللعب ، والكتابة) تبرز فيها بشكـل مبـاشر ثنائية الحضور والغياب ، وقد انطلق دريدا من خلال هذه الثنائيـة - إلى جـانب المعطـيات السابقة - لنقد توجـه الخطاب الفلسفيّ الغربيّ ، وتقـويض أسسِـه من خـلال كشف تناقضاته واللعب بأنظمتـه وممـارساته ، وتحويل معادلتـه المعرفية مـن

(ميتافيزيقيا الحضـور) - حسب مصطلح دريدا - إلى غـياب المعنى واختلافه وتعدده [٥٠].

وقد عدّ جيمسون ثنائية الحضور والغياب (حدثاً مركزياً Central Event في الطرح التفكيكي عند دريدا (Derridean Fashion) [٥١]، وتنهض هذه الثنائية بوصفها نتيجة من نتائج الاختلاف ومظهراً له، ومن أجـل أن تعمل منظومة الحضور لابدّ أن تمتلك خصائص النقيـض وهو الغياب ، وبذلك يتم التعامل مع الحضور على أنه مظهرٌ من مظاهر الغياب والاختلاف .[٥٢]

وهذا المبدأ استأثر به تاريخ الخطاب الغربيّ ليتمركز حول ذاته ، وليعلي من شأن تموضع مؤسساته الفكريـة والمعرفية ، وليبرهن من ثمّ على تفوق ممارساته الخطابية التي أسندت لنفسها مهمة تحديد المعرفة واحتكارها ، وبذلك ظهرت الحيوية الذاتية للكائن الغربيّ ، بوصفها الوجود المتعالي القادر على تجهيز الحلول وترميم الأزمات في كل زمان ومكان ، وقد جاء عمل دريدا لتقويض هذا التمركز ، وإحلال مبدأ الغياب محل هذا الحضور ، وإسناد كل الأرصدة المعرفية إلى معانٍ متعددة ومختلفة.

ويرتبط بثنائية الحضور والغياب مصطلحات ابتدعها التحليل التفكيكي منها : المتاهة (Aporia) ، والزيادة ـ الإضافة (Supplement) ، وتسهم هذه المصطلحات ـ حسب إيكلتون ـ في تفعيل تكتيك النقد التفكيكي الذي يقوم على إظهار أنّ النصوص تضع أنظمتها في مطبّات عديدة ، ويُظهر مسار هذا النقد أعراض تأزم النصوص (Symptomatic) ، وبنائها القائم على المتاهات (Aporias) ، ومأزق تصيّد المعاني ،

ويؤدي هذا التوجــه إلى اضطراب النصوص واهتزازها ، وممارسة مناقضة ذاتها بشكل مستمر [٥٣]

يرتكز مصطلح (المتاهة) على شرح القراءة المزدوجة ، فالتفكيك لا يسعى إلى الوصول إلى حقيقة معينة في معرض نقده للتمركز الغربيّ ، أو أنّه لا يسعى إلى تقديم بديل عن تناقضات هذا التمركز ، إنّما يمارس قراءة وكتابة نقدية مزدوجة تهدف للوصول إلى منطقة مغلقة تضفي التناقض على المعاني وتصبح غير قابلة للتحديد ، وتكون الحقيقة الوحيدة التي يستطيع التفكيك تقديمــها هي : تمُوضع المتاهات في ثنايا النصوص وأنظمتها الدلالية [٥٤] .

ومن هنا كان الاتجاه للتفكيك أمرا ضروريا وذلك لأن اللغة وأيديولوجيا الثقافة أكبر من النص ذاته الذي عليه أن يتكيف مع شفرات اللغة والثقافــة والتي قد تكون متناقضة فمن غير المألوف أن يكون خطاب النص متكاملا وغير ملتبس ، وهكذا يمكن أن نقول إن كل النصوص تحتوي علي عناصر تمزيق أو نقاط قطع أو فجوات تسمح حين تدرك وتفحص بدقة بقراءات أخري هامشيــة أو غير مفصلة ، قراءات تضع المعني المكتشف الواضح ظاهرياً أو المعني الحكمي أو المألوف موضع التساؤل ، هكذا تفحص القراءة التفكيكية النص لتعثر على نقاط(تفك) عندها شفراته التكوينية ذاتها .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن المنهج التفكيكي أن نبحث العلاقة بين التفكيك والتأويل ، والتأويل معناه في الثقافة العربية " نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلي ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ " ، وعرفه الليث " التأويل والتأول : تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه " [٥٥]

ويختلف معني التأويل في المنهج التفكيكي فيعني " لانهائية الدلالة بل هو دعوة إلى التوسع في البحث عن أصل الشيء الأول لكن بشروط مخصوصة " (٥٦)

والمتفهم للقراءة التفكيكية يجد أنها أبرز الاتجاهات النقدية قرباً من التأويلية فهي دعت على لسان زعيمها دريدا إلي تقويض الفكر الغربي الذي تأسس على فكرة الحقيقة القابعة التابعة داخل النص بالمفهوم البنيوي، وليتم هذا يجب أن يهدم النص حتى يتساوى نسيجه التعبيري .. النص لا يتحدث عن خارجه (مرجعه) بل إنه لا يتحدث عن نفسه ، وإنما تجربتنا في القراءة هي التي تحدثنا عنه ، إن النص يمكن أن يقرأ بتجاوز لمعناه التواضعي والاصطلاحي ، وهذه القراءة هي نوع من اللعب الحر، وعلى هذا الأساس فإن تأويلات النفس وتعدداتها متعلقة أساساً بمؤهلات القارئ ، فالنص بمثابة بصلة ضخمة لا ينتهي تقشيرها " (٥٧)

ولعل التشبيه الأخير للنص في ظل المنهج التفكيكي وعلاقته بالتأويل يجعل العلاقة التأويلية للنص علاقة شاسعة ، ومسارات الدلالة تفضي إلي اللانهائية ، وقارئ النص الأدبي عليه في ظل هذه القراءة أن يختار من متعدد ، وأن يسير مع خيط من خيوط الدلالة المتشعبة التي تظل تبحث عن سؤال مفتوح ، إن هذه العلاقة جعلت النقاد يقفون أمام المنهج التفكيكي وينظرون إليه على إنه منهج شكلي لا يهتم بعقل النص ، وإنما يهدف إلى إنتاج دلالات متعددة تصل بالقارئ إلي خلق الدلالة نفسها في ظل غياب النص الأصلي ، ومن هؤلاء النقاد الدكتور عبد الغني باره فقال في نقده للمنهج التفكيكي " وكأن ما يوجد في النص _اللب _ لا أهمية له لأنه ليس هدفاً يرجي بلوغه ، وإنما المرجو هو المتعة أو اللذة بالمفهوم (البارتي) حيث تختفي الدلالة الحقيقة وتسود النسبية التي تصل إلي الشك والعدمية ،

ولعل هذا ما دفع بأنصار التفكيكية إلى الإعلان عن موت المؤلف ، لأن اختفاءه هو إعلان لميلاد القارئ (السوبرمان) بالمفهوم النيتشوي الذي ينصب نفسه مبدعاً للنص بدعوى صعوبة مقصدية كاتبه الأول الذي يفترض إنه غائب ، إن رمزياً أو حقيقة وهو ما يدعم المعطى التأويلي ، ويجعله ضرورة لفهم النص والسعي إلي الوصول إلى المحتمل والممكن فيه " (٥٨)

ويتفق عبد الوهاب المسيري مع الرأي السابق فيوجه النقد للقارئ الحداثي _ في ظل المنهج التفكيكي فيقول " هذا القارئ المبدع (السوبرمان) يشبه تماماً الحاخام المفسر في المنظومة القبالية الذي يفرض أي معني يشاء على التوراة ، وذلك من خلال "الجماتريا" والأشكال الأخرى من التفسير ، وإدارة الحاخام هي أثر يجري فرضه على التوراة، والتفسير الذي يطرحه هو قراءة تجب النص الآلهي وتحل محله، ومن ثم حل التلمود(وهو كتاب تفسير للتوراة) محل التوراة ذاتها"(٥٩)

وقد بالغ الناقدان في وصفهما للقارئ – في ظل المنهج التفكيكي - ، وغلب على رأيهما كثير من السخرية ؛ لأن التفكيك لم يعط السلطة كاملة للقارئ في اختراع أو ابتداع المعنى داخل النص ، وليس للقارئ أن ينشئ معنى ليس موجودا في النص ، بل المقصود من لانهائية المعنى هو إمكانية طرح أكثر من قراءة للنص ، مع الإيمان الكامل بأن المفردة تكتنز بإيحاءات وإشعاعات مختلفة ومتباينة ، وليس لها مدلول واحد نقف عنده .

وهكذا ينتهي عرضنا التنظيري للمنهج الذي أردنا من خلاله أن نقف على أسس المنهج التفكيكي والمصطلحات التي ترتبط به ، لنشرع بعد ذلك في القراءات النصية وفق ما عرضناه من معايير سابقة .

هوامش

(١) ديفيد بشبندر / نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر / ت عبد المقصود عبد الكريم / الهيئة المصرية العامة للكتاب / مكتبة الأسرة / ٢٠٠٥ /٧٥

(٢) السابق / ٨٧

(٣) عبد العزيز موافي : تحولات النظرة وبلاغة الانفصال / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ٢٠٠٥ / ٣٢

(٤) معين زيادة / الموسوعة الفلسفية العربية / معهد الإنماء العربي/ بيروت / ١٩٨٦ / مج / /٧٧٢

(٥) عبد الله إبراهيم / الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة – تداخل الأنساق والمفاهيم /المركز الثقافي العربي / بيروت /١٩٩٩/ ١٠٧

(٦) السابق / ١٧

(٧) نفسه / ١٩

(٨) سعد يقطين / تحليل الخطاب الروائي / المركز الثقافي العربي / بيروت / الدار البيضاء / ١٩٨٩ /٢٤

(٩) أدونيس / كلام البدايات / دار الآداب / بيروت / ط٢ / ١٩٨٩/ ٢٧

(١٠) السابق / ٢٧- ٢٨

(١١) نفسه / ١٩٠

(١٢) ديفيد بشبندر / نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر / ٧٥

(١٣) ديفيد بشبندر / نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر / ٧٧ هامش

(١٤) السابق / ٨٢

(١٥) نفسه / ٧٧، ٧٨

(١٦) ديفيد بشبندر / نظرية الدب المعاصر / ٧٦

(١٧) السابق / ٨٣

(١٨) عبد الغني بارة / تأصيل الحداثة /١٠٩

(١٩) ديفيد بشبندر / نظرية الأدب / ٧٧

(٢٠) ينظر : مواقع . حوارات مع جاك دريدا ، ت : فريد الزاهي : ١٤ ـ ١٥.

(٢١) ينظر : المصدر نفسه : ٢٩ ـ ٣٠

(٢٢) عبد الله إبراهيم : المركزية الغربية /المركز الثقافي العربي / بيروت /١٩٩٧/ ٣١٨

(٢٣) ينظر كريستوفر نورس : التفكيكية . النظرية والتطبيق ، ت : رعد عبد الجليل / دار الحوار / سوريا /١٩٩٦/ ٣٨ ـ ٣٩.

(٢٤) ينظر : روبرت راي: كتاب : موسوعة الأدب والنقد / ت : عبد الحميد شيحة / المشروع القومي للترجمة / المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة / ١٩٩٩/ ١١١ ـ ١١٢.

(٢٥) See : Structure . sign . and play in the Discourse of the Human Sciencec , in : Modern Literary Theory : 184 – 185 .

(٢٦) مواقع . حوارات مع جاك دريدا : ٤٢.

(٢٧) ينظر : جاك دريدا :الكتابة والاختلاف / ت : كاظم جهاد /دار توبقال / الدار البيضاء / ١٩٨٨ / ١١١ ـ ١١٢.

(٢٨) ينظر : التفكيك . الأصول والمقولات / الدار البيضاء / ١٩٩٠ عبد الله إبراهيم : ٦١ ـ ٦٣.

(٢٩) ينظر : ميجان الرويلي وسعد البازعي : دليل الناقد الأدبي /المركز الثقافي العربي / بيروت / ط٢ / ٢٠٠٠/ ١٣٣ ـ١٣٤

(٣٠) المركزية الغربية : ٣٢٠.

(٣١) ، كروستوفر نورس: نظرية لا نقدية (ما بعد الحداثة – المثقفون وحرب الخليج) ت : عابد إسماعيل / دار الكنوز الأدبية / بيروت / ط١ / ١٩٩٩ / ٤٢.

(٣٢) السابق / ٤٢.

(٣٣) See : Structure . Sign . and Play in the Discourse of the Human Science , in : Modern Literary Theory : 184 – 185 .

(٣٤) مواقع . حوارات مع جاك دريدا : ٢٨.

(٣٥) جاك دريدا :صيدلية أفلاطون / ت : كاظم جهاد /دار الجنوب للنشر / ١٩٩٨/ ١٣.

(٣٦) ينظر : عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة / سلسلة عالم المعرفة / الكويت /: ٥٠ ، ١٨٢.

(٣٧) الكتابة والاختلاف : ١٠٤.

(٣٨) صيدلية أفلاطون : ١٢٤.

(٣٩) ينظر : الكتابة والاختلاف ، مقدمة المترجم : ٣٣ ـ ٣٥.

(٤٠) صيدلية أفلاطون : ١٢١.

(٤١) ينظر : دليل الناقد الأدبي : ٥٨ ـ ٥٩.

(٤٢) المركزية الغربية : ٣٣٣.

(٤٣) دليل الناقد الأدبي : ٦٦.

(٤٤) ينظر : صيدلية أفلاطون : ٢٢ ، ٤٩ . وهناك مصطلح آخر يندرج في حركة اللعب الحرّ هو مصطلح (Pharmakos) الذي يعني الساحر والمسحور ، وقد ذكره دريدا في هذا الكتاب : ٧٣ ، ٨٥.

(٤٥) ينظر : دليل الناقد الأدبي : ٦٧ ـ ٦٩.

(٤٦) المصدر نفسه : ١٦٣.

(٤٧) ينظر : المركزية الغربية : ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٤٨) ينظر : فايدروس ، ت : أميرة مطر / دار الثقافة / القاهرة / ١٩٨٠ / ١٢٤ ـ ١٢٥

(٤٩) ينظر : المركزية الغربية : ٣٢٦ ـ ٢٣٧.

(٥٠) التفكيك ، عبد الله إبراهيم : ٧٩.

(٥١) منذر عياشي : الكتابة الثانية وفاتحة المتعة (فعالية القراءة والكتابة) / المركز الثقافي العربي / ١٩٩٨ / ٢٧

(٥٢) مفاتيح لقراءة جاك دريدا ، ناصر حلاوي ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد ٥ ـ ٦ لسنة ١٩٩٠ : ٥٨.

(٥٣) ينظر : التفكيك ، عبد الله إبراهيم : ٥١ ـ ٥٢..

(٥٤) دليل الناقد الأدبي : ١٣٣.

(٥٥) عبد الملك مرتاض / التأويلية بين المقدس والمدنس / عالم الفكر / المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب / الكويت / م١٢٩ / ع١ / ٢٠٠ / صـ٢٦٣

(٥٦) عبد الغني بارة / تأصيل الحداثة / ٣٣٧

(٥٧) محمد مفتاح / مجهول البيان / ١٠١

(٥٨) عبد الغني بارة / تأصيل الحداثة / ٣٤٢

(٥٩) عبد الوهاب المسيرى / اليهودية وما بعد الحداثة / المعهد العالي للفكر الإسلامي /الولايات المتحدة الأمريكية / ٢٤ / السنة العاشرة ١٩٩٧ / ١١٩